

قانون البلاغة

- ٣ -

أما حصر المعاني بقوانين كلية تستوعب أقسامها ، وتستوفي أحكامها ، فمسير
لأنه يحتاج فيه إلى تقديم صناعات كثيرة ، وعلوم شاقة ، إلا أن في فطر الناس
السليمة اتباع الصواب وقصده . والنقار من الخطأ والحياد عنه ، فقد يكتفي من سلم
فكره ، ولم يضطرب ذهنه ، بما معه من المعرفة التي يوقع (?) العبارة عنها . إلا أن
لهذه الصناعة خاصة أغراضاً من المعاني ، يلزم الكلام فيها ، ومقاصد لا يسع
الإخلال بها .

فأما نعوّثها فمنها صحة التقسيم ، وهي أن يؤتى بالأقسام مستوفاة ، لم يخل بشيء
منها ، ومختصة لم يدخل بعضها في بعض ، كقول من قال : لم تخل فيما بدأني به
من مجد أثنته ، أو شكر تعجلته ، أو أجر ادخرته ، أو متجر اتجرته .

ومنها صحة المقابلات^(١) : وهو أن يؤتى بمعان يراد التوفيق بينها وبين معانٍ
أخر . والمضادة فيؤتى في الموافق بموافقه ، وفي المضاد بمضاده ، كقول القائل :
أهل الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الأذن والفتش ، وليس من جمع إلى الكفاية
الإمانة ، كمن أضاف إلى العجز الخيانة .

فمن تأمل هذه المعاني وجدها في غاية المعادلة ، لأنه جعل بازاء الرأي الأذن ،
وبازاء النصح الفتش ، ومقابل الكفاية العجز ، ومقابل الأمانة الخيانة . فهذا التقابل
تعديل في الموافقة والمضادة .

ومن هذا الجنس قول هند بنت النعمان بن المنذر بن ماء السماء الملك للخيرة بن

(١) وجد في هامش الأصل ما يأتي : والعلامة فيها قوله تعالى : « فأما من أعطى
وانتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من يخجل واستغنى وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى » . لما جعل التيسير مشتركاً بين الإيعطاء والإيتقاء والتصديق ،
جعل في مقابلتها التعسير مشتركاً بين المنع والاستغناء والتكذيب فانهم اه .

شعبة بعقب إحسان منه إليها : شكرتك يد نالتها خصاصة بعد نعمة ، وغنيت عن
بدر نالت ثروة بعد فاقة .

ومنها صحة التفسير وهي ان توضع معانٍ تحتاج الى شرح احوالها ، فاذا شرحت
أبي بتلك المعاني من غير عدول عنها ولا زيادة عليها ولا نقصان منها . كقول من
قال : وانا اتقى من مساءلتك في حال ، بمثل ما اعلمه من مشاركتك في أخرى ،
لانك ان عطفت وجدت كدناً ، وان غمزت الفيت شيئاً .

وكقول آخر : واين يُذهب بك ، مع غزير انعامك ، وشديد احكامك ، واليم
انتقامك ، ان تكون مشباعاً للضيف ، ومدفاعاً للحيث ، وبمناغاً من الخوف .

ومن نعوت المعاني التميم ، وهو ان توجد في المعنى كتابة او خطابة فيوفى بجميع
المعاني التامة لصحته ، المكلمة لجرودته ، من غير ان يخل ببعضها ، ولا أن يتعارض شيء
منها . كقول القائل : فخلقت به اسباب الجلالة ، غير مستشعر فيها لنخوة ، وترامت
به احوال الصرامة ، غير مستعمل فيها السطوة ، هذا مع زمارة^(١) في غير حمصر ، ولين
جانب من غير خور . فقد اتى هذا المتكلم بثنيمات المعاني التي جاء بها من غير ان
يخل بشيء منها .

ومن نعوت المعاني المبالغة ، وذلك ان يذكر معنى بما لو اقتصر عليه لكان كافياً
فيما قصد له ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكد معانيه ، ويعتمد المبالغة فيه . مثل قول
الاعرابي : اللهم ان كان رزقي نائياً فقربه ، او قريباً فيسره ، او ميسراً فمجله ،
او قليلاً فكثره ، او كثيراً فثمره . فهذه مبالغات تؤكد المعنى وتزيد فيه .

ومن نعوت المعاني التكافؤ وهو ان يتكلم في امر من الامور ، فيؤتى فيه بجمان
متكافئة ، واعني بتكافئة في هذا الموضوع منقارمة اي ان كل اثنين منها متعاند حتى
اذا قيل في معنى ان شيئاً اسود أتي باخر ، يقال فيه ان شيئاً ابيض الى غير ذلك
من وجوه العناد . مثل قول من قال : كدر الجماعة ، خير من صفو الفرقة ، ومثل
قول القائل : وكان اعتدادي بك اعتداد من لا ننضب عنه نعمة قنمرك ، ولا يمر
عليه عيش يجاهد لك . فقوله بازاء ننضب ، قنمرك ، ويمر ، يجاهد ، من التكافؤ .

(١) زمت الرجل زمارة وقر .

فاما عيوب المعاني فان من كان حافظاً لما قدمناه في باب نعوت المعاني فسيهون عليه تعرف عيوبها . وجماع ذلك ان تكون المعاني معدولاً بها عن الاغراض المنتجة ، والمقاصد المتوخاة ، الا ان من تفصيل ذلك الاستحالة والامتناع والتناقض :

فاما المستحيل فهو الشيء الذي لا يوجد ، ولا يمكن مع ذلك ان يتصور في الفكر ، مثل الصاعد والنازل في حال واحدة ، فان هذه الحال لا يمكن ان تكون ولا لتصور في الذهن : واما الامتناع فهو الذي وان كان لا يوجد فيمكن ان يُتخيل ، ومنزله دون منزلة المستحيل في الشناعة مثل ان تركيب اعضاء حيوان ما ، على جثة حيوان آخر ، فان ذلك جائز في التوهم ، ولكنه معدوم في الوجود .

واما التناقض فبان تجمع بين المقابلة من جهة واحدة . والمعاني تقابل على اربعة اوجه : اما على طريق الاضافة ، مثل الاب للابن ، والضعف للنصف ، والمولى للعبد . واما على طريق التضاد ، مثل الأسود للأبيض ، والحار للبارد ، والخير للشرير . واما على طريق الملكة ^(١) والعدم ، مثل البصير للاعمى ، والموسر للفقير ، وذبي الوفرة للأصلح .

واما على النفي والاثبات مثل ان يقال : زيد جالس ، زيد ليس يجالس ، فالثلاث المقابلات الاولى تكون في المعاني ، والرابعة تكون في اللفظ وحده ، ولكن هذا التقابل الأخير لما كان قد يمتقداً ايضاً ، حتي لعل من يعدم اللفظ ، يشير الى ما في نفسه منه إشارة بنفي اللفظ ، كما يشير الأخرس مثلاً بان يحطّ يده الى أسفل في الايجاب ، او يرفعهما الى فوق في النفي ، وما جرى هذا المجري - أضفنا الكلام في الكلام في المعاني . وقولي في جميع هذه المقابلات من جهة واحدة ، انما اردت به هذا هو الشنيع الجاري مجرى العيب . فاما ان يكون مثلاً في باب المضاف انسان ما اباً لزيد ، وابناً لبكر ، ومولى لفلان وعبد لآخر ، ويكون عدد ما ، نصفاً لعشرين وضعفاً لخمسة ، وكذلك في التضاد مثل ان يكون الفانر حاراً عند البارد ، وبارداً عند المحرق ، وفي الملكة والعدم مثل ان يكون انسان بصير القلب ، أعمى العين ،

(١) خ القنية .

او مفسراً من عرض ، مومراً من آخر ، وفي الاثبات والنفي مثل ان يكون زيد
جالس الظاهر ، ليس يجالس العصر ، فجميع ذلك جائز .

فاما المنكر المستبشع الذي او ماناً الى انه اذا وجد في معنى كان معيباً ، فمثل ان
يجعل رجل ما ، ابناً لزيد وابناً له ، وعدد ما ضمناً لخمسة ونصفاً لها ، وشي ما حاراً
عند رجل ، وبارداً عنده بعينه ، وانسان ما ، اعشى القلب بصيره ، ويجعل زيد
قائماً في هذا الوقت ، غير قائم فيه نفسه ، فهذا كله فاسد لا يجوز ، لان التقابل جُهل
فيه من جهة واحدة ، فيصير حينئذ تناقضاً ، وهو من افحش عيوب المعاني المبرر عنها
بالكلام المنشور ، والكلام المنظوم ايضاً .

ومن عيوب المعاني فساد التقسيم وذلك يكون على ثلاثة اوجه : اما بتكرير المعنى ،
اذ بان يؤتى منها ما يكون بعضه داخلاً تحت بعض ، او بان يخل بما يقتضي المتكلم فيه
استيفاءه . فاما التكرير فمثل ما كتب بعضهم الى عامل : فكفرت مرة في عزلك ،
وأخرى في صرفك ، وتقليد غيرك . ومثل قول هذا الرجل لهذا العامل : فتارة
تسرق الأموال وتختزلها ، وتارة تقنطمها وتحتجنها :

واما دخول بعض الأقسام في الآخر ، فمثل ما سأل بعض النواكي فقال :
اخبروني عن علقمة بن عبدة جاهلي هو ام من بني تميم . ومثل قول بعض المترسلين
في فتح : فمن بين جريح مضر ج بدماثه ، وهارب ما بلنفت الى ورائه . فكللا هذين
القسمين يدخل في الآخر ، لان الجريح قد يكون هارباً ، والهارب قد يكون جريحاً .
واما الاخلال ببعض الأقسام فمثل قول القائل : انك لا تخلو في هربك من
صارفك ، ان تكون قدمت اليه اسائة خفت منه معها ، او خنت في عمك خيانة ،
رهبت بكشفه اباك عنها ، فان كنت اسأت فأول راض سنة من يسيرها ، وان
كنت خنت خيانة ، فلا بد من مطالبتك بها . فكتب العامل تحت هذا ، هذا
التوقيع : قد بقي من الأقسام ما لم تذكر : وهو اني خفت ظلم اباي بالبعد منك ،
وتكثيره علي بالباطل عندك ، ووجدت الحرب الى حيث يمكنني فيه دفع ما يتخرصه
انني للظنة عني ، والظلم عنم لا يؤمن ظلمه اولى بالاحتياط لنفسي .

ومن عيوب المعاني ، فساد المقابلات ومن كان حافظاً لما ذكرنا من صحة المقابلات

في باب نموت المعاني ، وقف سهولته على الوجه في فسادها ، وذلك ان يُذكر معنى يقتضي الحال ذكر ما يوافقه ويمانده ، فيؤتي بما لا يوافق ولا يشاكل ، او بما لا يقاوم ولا يعادل ، فليس المقول فيه من الناس انه خير على الاطلاق معانداً للمقول منه انه مارق ولا موافق .

ولهذا لا يحسن في البلاغة ، وكلام اهل الحجي - لم يأتي من الناس أسود ولا أسمر - بل الأجل ان نقول ولا أبيض ، لان الاسمر ليس يعاند الأسود غاية المعاندة ، ولا يوجد منه في غاية المباعدة . وكذلك لو قال قائل : ما صاحبتي في هذا البلد خيراً ولا شراً ، كان ذلك أذهب في سبيل السداد ، من قوله خيراً ولا شراً . ومن عيوب المعاني فساد التفسير ، ومن كان ذا كراً لما قدمناه من نعت هذا الباب ، عرف الوجه في عيبه . ومن المسائل سيفي ذلك قول بعض المترسلين الى عامل من عمال الأطراف : ومن كان لأمر المؤمنين كما انت له من الذب عن ثوره ، والمسارة الى ما يهيب به اليه ، من صغير خطب وكبيره ، كانت جديراً بنصح امير المؤمنين في أعماله ، والاجتهاد في ثمر أمواله ، فليس التي قدم من الخال التي عليها هذا العامل في الذب عن الثور ، والمسارة في الخطوب ، بما سينله ان يُفسر بالنصح في الأعمال ، وثمر الأموال ، اذ كان الذي قدمه لا يلزم عنه مانسره . ومن نموت البلاغة : ان البلاغة ثلاثة مذاهب يقصد في استعمالها : المساواة والإشارة والتذييل . فالمساواة ان يكون اللفظ كالتقابل للمعنى لا يفضل عليه ، ولا ينقص عنه . والإشارة ان يكون اللفظ مشاراً به الى المعنى كاللمحة الدالة . والتذييل إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه . حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتأكد عند من فهمه ، ولكل مذهب من هذه المذاهب موطن يليق به ، ووقت لا يصلح فيه غيره .

فاما المساواة فأولى المواطن بها اذا كانت المخاطبة للنظراء ، ومن ليست له مآرب تشغلها ، ولا شؤون تصرفه ، عن استيفاء المعنى الى آخره . واما الإشارة فأولى الأوقات بها الوقت الذي يخاطب او يكتب فيه ذوات المراتب العالية ، والشؤون الكثيرة ، والههم المنقسمة ، لان من كان في هذه الطبقة احتاج

ان لا يشغل خاطره بمعنى واحد بعينه ، ولا ينفد زمانه اهتمام بغيره ، وكان الوحي^(١) عنده أنفق من الإطالة ، والإشارة اليه اولى من تطويل المقالة .

واما التدبيل فانما سبيله ان يستعمل في المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، وقد قال بشر بن المعتمر : ينبغي للتمكلم ان يعرف أقدار المعاني ، فيوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، ويجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكل حال مقاماً ، حتى يقسم اقدار المعاني ، على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين ، على تلك الحالات .

واذ قد ذكرنا من أحوال هذه المذاهب الثلاثة ما أنبأ عن صورته الأمر ، فانما تأتي في كل مذهب منها بمثال مما تقدم استعمال البلغاء إياه في جنسه ، ليزيد ذلك من عمله شرحاً لما وعاه من معانيه ، وينبئ^٤ من لم يفهمه عن حقيقة الحال فيه ، وابدأ من ذلك بمذهب الإشارة .

قال احمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبسطه كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، وبصعد فيه طرفه ، وأصوب ، فلما صرت على ذلك مدة من زمانه ، التفت الي وقال : يا احمد أراك مفكراً فيما تراه مني ، قلت : نعم فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ، زعم ان البلاغة انما هي التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البنية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على كثير المعنى ، وما كنت أتوهم ان احداً على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب ، ورمي به الي وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا . ففككته فاذا فيه :

« كتابي الي امير المؤمنين ومن قبلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الإتياد والطاعة ، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاخملت لذلك أحوالهم ، والثالث معه امورهم » . فلما قرأته قال : ان استحساني إياه ، بعثني ان اصرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وانا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محلّه في صناعته .

(١) الوحي المكتوب والرسالة وكل ما ألقينته الي غيرك ليتممه كيف كان ثم غلب على وحي الانبياء . وقيل الوحي إعلام في خفاء ، فالمراد هنا اعلام في ايجاز كلام مربع التلقين .

وأمر الأُمون عمرو بن مسعدة ان يكتب لرجل به عناية الى بعض العمال في قضاء حقه وان يختصر كتابه ما امكنه ، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد ، لا زيادة عليه ، فكتب عمرو : كتابي كتاب واثق بمن كتبت اليه ، معتن بمن كتبت له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكان جعفر بن يحيى^(١) يقول لكتابه : ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا . وكتب ابراهيم بن ابي يحيى الى بعض الخلفاء يعزبه ، ويجري في المذهب الذي نحن بسبيله وهي : اما بعد فان أحق من عرف حق الله عليه ، فيما اخذ منه ، من عظم حق الله فيما بقاه له ، واعلم ان الماضي قبلك ، هو الباقي لك ، وان الباقي بعدك ، هو المأجور فيك ، وان أجر الصابرين فيما يصابون به ، أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه .

ودخل بعض البلغاء على بعض الامراء فقال : السلام عليك ايها الأمير ، سلاماً يتصل أمثاله بسمك ابدأ ما بقيت ، إما من وليك ، بطوع قلبه ، وصادق وده ، وإما من عدوك برغم أنفه ، وذئله خده .

ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى الإرداف : وهو ان يراد للدلالة على معنى ، فلا يوثق باللفظ الخاص ، بالدلالة على المعنى نفسه ، بل بلفظ هو ردفه ، وتابع له ضرورة ، ليكون في ذكر التابع ، دلالة على المتبوع ، وهذا المذهب يوجد كثيراً في الاشعار ، وبلاغة الأعراب ، مثل ما قالت أعرابية نصف رجلاً : ولقد كان منهم عمار ، وما عمار ، لم تحمد له قط نار ، طلاب باوتار . وانما أرادت بقولها لم تحمد له قط نار : كثرة إطعامه الطعام ، فلم تأت باللفظ الدال على هذا المعنى نفسه ، بل ذكرت إيقاده النيران ، لان ذلك تابع لا يتخذ الطعام . ومثل قول أخرى وصفت زوجها فقالت : اخذني من اهل غنيمية بشق فجعلني في اهل صهيل وأظبط ودانس ومنق . فأرادت انه اخذها من اهلها وهم فقراء لهم غنم قليلة ، فجعلها في قومه ، وهم أغنياء لهم خيل تصهل وإبل تُنط اي ترغو ومزدرع يُنفل . فأكثر هذه المعاني التي

(١) وفي الهامش : وهو قربع دهره ونسج وحده في معرفة البلاغة اه .

أنت بها ، انما هي أرداف معان أشارت الى الدلالة عليها . وكذلك قول سائر الاعرابيات اللاتي هن في حديث أم زرع وقد ذكرنا صدرأ في كتاب نقد الشعر .
 ومما جاء في ذلك من بلاغات المحدثين : ما كتب به بعض الكتاب الى صديق له فقال : وكيف لا أتمسك بعهدك ، وأتثبت بعلائق ودك ، وانت ممن لا نقلى صحبته ، ولا تحشي غيبته ، ولا يكد الصديق عتبه ومعاتبته ، فهذه الألفاظ مجرأة مجرى الإرداف . فأراد بقوله لا نقلى صحبته اي لا يسيء الى مصاحبه ، واذا لم يسيء لم يُقل ولا تحشي غيبته ، انه ليس بشير ، ولا وقاعة في الناس ، ولا يكد ذلك انه لا يتجننى على صديقه فيعاتبه فيما لا اصل له ، ولا يسيء عشرته فيجوجه الى معاتبته .

ومما جاء من ذلك قول من قال حتى اذا ثار النقع ، والنف الجمع بالجمع ، واحمرت الأحداق ، وقامت الحرب على ساق . وكل هذه الاشياء تدل على معركة الحرب . ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى التمثيل وهو ان يراد الاشارة الى معنى فتوضع الفاظ تدل على معنى آخر ، وذلك المعنى وتلك الالفاظ ، مثال للمعنى الذي قصدت الاشارة اليه ، والعبارة عنه . واكثر الاستعمال لهذا المذهب انما هو في البلاغة الشعرية . وقد استعملها الكتاب في رسائلهم ، والخطباء في خطبهم ، فيكون ذلك مما يحسن موقعه ، ويبين في البلاغة موضعه .

ومن الأمثلة في ذلك كتاب يزيد بن الوليد الى مروان بن محمد ، وقد بلغه «انه» بتلكو في بيئته . اما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أبتها شئت والسلام . فلو كتب : اذاك أذاك كتابي هذا فبايع لم يكن للفظه من العمل في المعنى ، ما للتمثيل الذي أتى به .
 « للبحث صلة »

